الرحلة وتطـــــــورها في الأدب الليبي

أ. عمر الهادي غبرة ـ كلية الآداب العجيلات ـ جامعة الزاوية.

الملخّـــص:

اشتمل البحث على دراســـة الأدب العربي في الرحلة وتطـــورها في الأدب الليبي الذي لا يزال في حاجة ماسه إلى مزيد من التعريف به ، وبإعلامه ، وأطواره، وفنونه المختلفة وكان على النحو التالي : التعريف بفن الرحلة وأهميتها ، ودوافعها، وأثرها في الأدب الليبي ، ودراسة التباين بين الرحلة وآداب الرحلة ، واشتمل البحث كذلك على نموذج من الرحلة الليبية (رحلة ارتسامات الإسفار : محمد مسعود جبران) ودراستها من حيث اللغة والتراكيب والبناء الفني والتناص

Mulakhaas albahth

Ashtamil albahth ealaa dirast mawdue min mawdueat aladib alearabii hu (alrihlat watatawuriha fi ala dib alliybii) ala dhi la yazal fi hajat masih alaa mazid min altaerif bih raba'aelamuh wa'atwaruh w fununuh almukhtalifat waja'albahth ealaa alnahw altaali.

Altaerif bialrihlat w'ahamiyatuha tawafue alrihlat wa'anwaeuha-altabayun bayn alrihlat w'adab alrahih wa'athariha fi aladib alliybii wakadhalik 'ashtamil albahth ealaa namubhaj li'ahad kitab fani alrihlat fi aladib allybii wahu alkatib muhamad maseud jubran warihlatuh ala alsiyn alshaebiat wadirasatuha min hayth allughat w alsiyn alshaebiat wadirasatuha min hayth allughat w altarakib walbina'alfaniyu

المُقدمـــــــــــة:

لا شـــك أن الرحلة إحدى المصادر المهمة للدراســـة في تاريخ أي بلد خلال فترة زمنية محدّدة ، خاصـــــة في العصر الحديث ، حيث تتناول معلومات في جوانب الحياة ، ومن جانب آخـــر تُشكّل الرحلة سجلاً وشهادات متزامنة الأحـــداث وتقييم تاريخ البلد من خلال كتابات الرحالة الذين عبروها ، والرحلة عامة تعد مصدراً مهماً بالبلدان التي تشملها ، ومرجعاً لا يستغنى عنه ، وتعتبر ليبيا من أهـــم البلدان الأكثر حضوراً في الرحلة الحجازية والمغربية، وبالرغم من تعدد الرحلة وتنوعها فإن ما دوّن عن ليبيا بقراها، ومدنها، ومسالكها، ومصادرها ومراحلها المختلفة أهم ما يطبعه الطرافـــة ، والتنوع ، والجـــدة، واختلاف المشاهدات ، واللقاءات فليس هناك تكرار.

لقد عني كتاب فـــن الرحلة في الأدب الليبي بوصف ما رأوه ، وتدوين ما سمعوه ه في رحلاتهم الداخلية والخارجية المتنوّعة من مظاهر المعالم البديعية والطبيعية السائبة المتجلية في البحار، وجريان الأودية والأنهار ، ورسوخ الجبال وشموخها، وجمالية السهول والنجاد ، وتنوع الإنسان والحيـوان ، والجماد، واختلاف طبقاتهم ، وتعدد طبائعهم وعاداتهم لقد ازدهر فـــن الرحلة في أدبنا الليبي ، وكُتبت فيه كتب وتأليف كما عرف فيه رحّالين عظام أمتعوا قرّاء الأدب بروائع أثارهم وسماعاتهم ومشاهداتهم.

تعريف الرحـــــلة :

1- **فـــي اللغـــــة :** الرحلة من رحل يرحل رحلاً ورحيلاً ، وذهب ورحل من بلده ، خرج منها ، وارتحل القوم انتقلوا والرحلة الناقة الصالحة لأن تركب ، والرحل مركب للبعير، الرحل –أيضاً- :ما يستصحبه المسافر من الاوعية ، وجمعه رحال(1) أما في "لسان العرب" لا بن منظور(2): فالرحلة ، أي : الرحيل للأبل ، أي : شدَ رحالها قال ورحلوها رحله.

2- **في الاصـــــطلاح :** تُعد الرحلة نوعاً من الحركة ، ومنبعاً لمختلف العلوم، ومصدراً للثقافات الإنسانية وسبيلاً لرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة محدودة ، وسجلاً حقيقياً لمختلف مظاهر الحياه الإنسانية ، ومفاهيم أهلها على مـــرّ العصور ، والرحلة قد تكون هواية تشبع حاجة في نفس الإنسان أو تكون احترافاً يخدمه ويشبعه ، وقد تكون سبيلاً من سبل المعرفة تصل الفكر بالفكر والمتعلم بالمعلم.

أهمية الرحلة :

أهمية الرحلة في حفظها للعديد من العلوم ، خلال مصنفات العديد من الرحالة كابن بطوطة ، وابن جبير ، والقادري ، والناصري ، والإسحاقي ، والفارسي من رجال العرب وهذه الرحلات لها أهمية في قيمتها العلمية لما تحوي عليه من معلومات قيمة في وصفها لمناطق الصراع وجوانب الحياة المختلفة في المجتمع مما جعلها رافداً من روافد العلم التي يستند عليها علماء التاريخ والجغرافيا والآثار والأدب ومن هنا برزت للرحلات قيمتان : قيمة علمية ، والأخرى أدبية ، وعلى الرغم مما يلحظه قارئ الرحلة الليبية وأشكالها الفنية ، ومراحل تطورها من خلال مسافات كتّابها عن وصف عذبها وعذابها والحرص على ذكر المشاهد الطبيعية والمظاهر الصناعية والشخوص البشرية في البلدان التي وصل إليها الليبيون في المشرق والمغرب ، بل وتداخل موضوعات تلك

الرحلات المختلفة في بعض نماذج نصوصها المتشابه وهو مظهر ملاحظ - أيضاً - في مسرد الرحلات العربية والغربية(3).

دوافـــع الرحلة :

تختلف الرحلة باختـــلاف الأغـــراض التي يتوخّاها القائمون بها ، فهم يسعون إلى تحقيـــق غرض معين أو جملة أغراض ، فمنهم من يطلب التعلم والمعرفة ، ومنهم من يسعى إلى تحقيق مكاسب تجاريه أو مكاسب دينية انطلاقًا من الـوازع الديني الذى كان وراء الكثير من الرحلات، كالرحلة لأداء فريضة الحج ، وذلك تطبيقاً لقوله تعالى- : **(وَأَذِّن فِـي اِلنَّاسِ بِالْحَجِّ)**(4) ، ويمكن القول إن الرحلات إلى جانب دورها الفاعل في الثقافة الواحـــدة فهي لغة أداه تفاعل حضاري ، ووسيلة من وسائل التقدم وصلة وصل بين الثقافات المختلفة(5).

أنواع الرحـــلة :

1-**الرحلة الدينيـــــة :** وهي رحلة تتصل من خـــلال تسميتها بمناسك العبادة وإقامة شعائر الدين ، وتوجه الرحالة فيها غالباً إلى وصف زياراتهم إلى الحرمين الشريفين ، أو القدس الشريف ، وغيرها من معالم الدين في المشرق والمغرب ، أو ملاقاة رجال العلم والفقه والإفتاء وذكر ما يتصل بذلك كله من فوائد ومسائل مختلفة وقد عرفت في فن الرحلة الليبية رحلات تتصل بهذا الغرض ومنها :

أ- رحلة الشيخ محمد كامل بن مصطفي بن محمود التي وزعت قطوفها بين كتابه المطبوع : الفتاوي الكاملية في الحوادث الطرابلسية ، وبين كناشة المخطوط الموجـــود بشعبة الوثائق والمخطوطات بمركز جهاز الليبيين للدّراسات التاريخية وكتابه " مجموعة العبد الدليل على ربع أنوار التنزيل، وقد حظي الرجل لقاؤه في الحرمين الشرفين بالشيخ عبد الرحيم سراج مفتي مكة والشيخ زيني دحلان مفتي الشافعية ، والشيخ حسن صالح جمل الليل العلوي- المدرس والخطيب بالمسجد الحرام- كما التقى بالشيخ الدهلوي صاحب كتاب حجة الله البالغة".

وهناك رحلات دينية أخرى قام بها محمد الصيد المسعودي ، ورحلة محمد علي رغوان المسماة النفحات القدسية في الرحلة الحجازية".

2- **الرحلة العلميـــــة :** تتعلق هذه الرحلة بضرب أباط الإبل لقصد التحصيل العلمي والاستزادة فيه ، ومن أقدم نصوص الرحلة في الأدب الليبي الحديث القطوف التي كتبها الشيخ محمد بن كامل بن مصطفى في فتاويه وكناشة مصوراً فيه جوانب من رحلته إلى مصر وتونس وإسطنبول ، ورحلة محمد مسعود فشيكه كأنك معي في

تونس وطرابلس، ورحلتي الطيب بن طاهر المصراتي إلى تونس والمغرب الأقصى ومن أحدثها كتاب " ارتسامات الأسفار محمد مسعود جبران.

3- الرحلة الســـــياحية : ويقصد بها كما هو معلوم الرحلة السياحية الترويحية التي ينهض بها الرحالة رغبة في الاطلاع على معالم البلدان وأشكال حضارتها ، وأحوال تقاليدها ،وعاداتها، فهي في الجملة رحلة تجمع في تضاعيها بين المعرفة والحقائق ونشدانا المتعة والترويح ، ومن أقدم نصوص هذا اللون من الرحلة الليبية ما جاء منها في البدء على صورة مقالات كالذي كتبه المجاهد الأديب سليمان عبد الله الباروني أو في شكل رسائل أهلية كالتي كتبها الشيخ الأديب أحمد الفقيه حسن ، ومن الرحالة الليبيين الذين كتبوا في فن الرحلة السياحية الترويحية الهادي إبراهيـم المشيرقي صاحـب الرحلتين المكتوبتين في أوائـل الخمسينـات من القرن العشريـن : مشاهداتي في بلاد الهند ، وليبي في البيان 1955/1375)، وكان من مظاهر الامتاع في الرحلتين ما كتبه في وصف المشاهد المختلفة التي رآها في زيارته مثل وصفه : منارة قطب الدين وعمود (درافا) وقبر "المهاتى عائـدي (جايبور بلاد الخيال) ، أو وصفه الدقيق للبقرة المُدللـــه في الهند ، والقلعة الحمراء، وتاج محل المعدود من عجائب الدنيا السبع، وحرق الأموات، ومن الرحلات السياحية الرحلة التي كتبها الأديب نجم الدين غالب الكيب المعنونة: بذكريات مسافر ، حيث جمع في هذا الكتاب بين الصفة الأدبية والصفة الصحفية ومن عناوين رحلاته: عشرة أيام في ألمانيا الشرقية"(6) ، ومدينة الضباب بلاد ضباب ، وبين معالم باريس.

الفـــــرق بين الرحلة وأدب الرحلة :

كثيراً ما يلتبس مفهوم أدب في الاستخدام المعاصر لكونه يفيد معنيين مختلفين من جهة، ومتداخلين من جهة أخرى، فمعلوم أن لهذه الكلمة معنىً واسعاً يشمل كل أنواع النتاج الفكري للأمة كما في كتاب كارول بروكلمان "تاريخ الأدب العربي" كما أن لها معنى مقابلاً وجزئياً ،وهو الأدب بمعناه المحدد من شعر ونثر ولعل ذلك الالتباس في مفهوم الأدب هو ما أوقع كثيراً من الدارسين في الخلط بين مفهومين مستقلين من ناحية، ومتداخلين من ناحيـــة أخرى ، وهما مفهوما الرحلة وأدب الرحلة وقد كان (كراتشو فسكى) (7) من السباقين للتنبيه على التباين بين المفهومين ، وذلك من خـــلال اهتمامه بالجانب الأدبي الفني للرحلات والإلحاح على إبراز أهميتيه حيث قال" يكون وصف الرحلة أحياناً قصة ممتازة يسجل صاحبها كل ما رآه ، أو ما هو جدير بالاهتمام، وكثيراً ما تبلغ مستوى عالياً من الفن والصياغة الأدبية، ويقول في موضع آخـــر" لقد أثار

الأدب اهتمامًا بالغاً بسبب تنوعه ، وغنى مادته، فهو تارة علمي ،وتارة شعبي، وهو طـــور واقعي وأسطوري على، السواء تكمن فيه المتعة، كما تكمن فيه الفائدة، ولذلك فهو يقدم لنا مادة دسمه متعددة الجوانب ومنهم شوقي ضيف في قوله" لا نبالغ إن قلنا أن الرحلة من أهم فنون الآدب العربي بسبب بسيط، وهو أنها خير رد على التهمة الطى طالما أتهم بها هذا الأدب قصوره في فن القصة(8).

إن الرحلة تتجلى في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني، ومن هنا نلاحظ أن الرحلة جنساً أدبياً مستقلاً ينبغي أيضاً انصافه كسائر الأجناس الأدبية الأخرى، ويقول حسين محمد فيهم "لقد وجد الدارسون أن ما ترك من كتابات قد احتوت على كثير من الملامح الأدبية والنواحي الجمالية التي برزت في اختيار الألفاظ وحسن الأسلوب وجمال التعبير ، ولهذا أصبحت كتابات الرحالة مجالاً للتحليل الأدبي وانصافه إلى كونها سجلاً انتوحرافياً هافاً ، وبالرجوع إلى أطروحة على عبد الحميد نقف على عرض علمي موضح ذلك الاجتهادات المتلاحقة بشأن تحديد مفهوم أدب الرحلة، وابرازه جنساً أدبياً مستقلاً ،وقد أنطلق هذا العرض من تعريف (وهيبه والمهندس) أدب الرحلة في معجم المصطلحات العربية في اللغة بأنه مجموعة الأثار الأدبية التي تناول انطباع المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، ثم أشار إلى جنوح بعض الدارسين بين الرحلة التي هي تنقل وضرب في الأرض، وبين دلالتها على أدب الرحلة الذى هو تصوير لغوي لذلك التنقل ورواية الأحداث وتسجيل المشاهدات وحاول ناصر الوافي التعريف بين هذين المفهومين والانتهاء إلى تعريف قال فيه: يمكن تعريف أدب الرحلة بأنه ذلك النثر الذى يصف رحلة- رحلات – واقعية قام رحال متميز موازياً بين الذات والموضوع، ومن خلال مضمون وشكل مرئيين يهدف التواصل مع القارئ والناشر فيه، وقد اشترك النائب علي عبد الحميد علي تعريف ناصر الموفي خلوه من الإشارة إلى عنصرين أساسين هما الحدث والسرد ، وهما العنصران اللذان اهتم بهما في دراسته أدب الرحلة في مجلة العربي الكويتية (1958،2000)، وقدم تعريفه الجديد ، وهو أن أدب الرحلة " جنس أدبي قصى سردي ، يكون الكاتب فيه هو الشخصية المحورية، وهو الراوية الذى يروي حكاية أسفاره وتنقلاته، ووصف الأماكن التي يحل بها والمعالم التي شاهدها وصفا تاريخياً، مستنتجاً أن ما يقصد به أدبية الرحلة هو الصياغة اللغوية الفنية، وليس الرصد المجرد المباشر(8)

أثر الرحلة:

تعد الرحلة إحــدى طرق المعرفة وموردا من موارد العلم ، وعنصراً قوياً في حياة المجتمع، وقد رحل العديد من الرحالة إلى مختلف البقاع لتحقيق غرض أو هدف معين من السفر - تجاره – علم –دين – حب استطلاع – سياحة ، والرحلة في الأدب الليبي على الرغم من كثرتها وتنوعها فإن ما دوّن عن ليبيا بقراها ومدنها ومساكنها ومفاوزها ومراحلها المختلفة أهم ما يطبعه هو الطرافة والتنوع والجدة لاختلاف المشاهدات واللقاءات فليس هناك تكرار ؛ بل إن أهميتها تتجلى في كثرتها ؛ إذ تغطي فترات متقاربه من تاريخ ليبيا مما يُسمح بملاحظة التطور، والتحول(9) ، وهذا نموذج من الرحلة الليبية رحلة : إرتسامات الأسفار محمد مسعود جبران

نبذة عن صاحب الرحـــــــلة:

محمد مسعود جبران ولد في مدينة طرابلس الغرب بتاريخ23 -5-1946 أديب وباحث ليبي شغل منصب رئيس مجمع اللغة العربية أستاذ جامعي. توفى سنة 2019/2/9 م ، من أهم أعماله عضو هيئة التدريس الجامعي في كلية الدعوة الإسلامية وجامعة طرابلس أهم مؤلفاته "عهد كامل بن مصطفي وأثره في الحياة الفكرية في ليبيا) وكتابه : " أعلام الحركة الفكرية في ليبيا" عضو هيئة تدريس جامعة طرابلس سنة88-89 كان صاحب البحث من ضمن طلابه.

الرحلة إلـــــى الصين الوطنية (تايون).

وكانت دوافع رحلته تلبية لدعوة كريمة من جامعة (أجين جي) للمشاركة في الندوة العلمية والدافع الثاني التعرف على إخوتنا المسلمين في هذا البلد المتنوع في الأديان والدافع الثالث توثيق العلائق ببعض الباحثين المشاركين في أعمال الندوة من البلدان المختلفة والدافع الرابع الحصول على الامتاع من هذه الرحلة العلمية الترويحية، يتحدث ويكتب عن رحلته ، يقول أنه في زمن قياسي تم خلاله حجز التذاكر واستقليت الطائرة من مطار طرابلس عن طريق الخطوط القطرية ، وقد كانت هذه المناسبة أول مناسبة أركب فيها من هذه الخطوط المتميزة بخدماتها العالية في الطعام والشراب والمعاملة الحسنة ، وجودة الأثاث وفسحة الكراسي واتساعها والمشاهد التي لفتت انتباهي في الطائرة غير الفخامة والضخامة أن العمالة فيها أسيوية وهى ظاهر غلبت على سكان الخليج في الأرض وفي السماء. "ويقول لقد نزلت الطائرة مطار هونق تونغ أول ما نزلتُ، فرأيت البحر محاذياً لممراته وهو يأتي على جهة الشمال أو يسار الراكب ،ثم سرنا بعد الحلول بأرضي المطار قاصدين إتمام الإجراءات في طريق طويل على أرض

بعضها ساكن لمن يريد التمهل وبعضها الآخر متحرك لمن يريد التعجل ثم دلفنا إلى ممرات البوابات التي تصل هذا المطار بدول العالم ، وهي ممرات بعيده طويلة قد يتوه فيها الإنسان إذا لم يتدرع بالتساؤل وطلب المشورة ، وأمضينا الإقامة بفندق تايبي، وهو من فنادق الدرجة الأولى في تايوان، يقع في أكبر شوارعها وأفسحها، وفي أجمل مناطق العاصمة ، وفيها مطعم كبير يغشاه من يحل فيه ، ماعدا ذلك فهو كثير النور بجمالها فسيح الساحات والباحات واتساعها، وله مسبح ساخن وآخر دافئ، والفندق يتميز بجودة أثاثه وكثرة خدماته وأذواق العاملين فيه(10). في حساب جامعة جين جي: بدأت أعمال هذا المؤتمر صباح يم 2006/12/20على تمام الساعة التاسعة صباحاً، وقد نقلتنا سيارة فارهـــة من الفندق إلى مباني جامعة جين جنى" عبر مسافة لا تقل عن عشرة كيلو مترات وفي قاعة ليست كبيرة إلا أنها تتميز بجودة الأثاث وكمال التنظيم والأناقة، بدأت أعمال المؤتمر بعد التعرف على نجاح المؤتمر وأعماله متأملاً أن تتولى في هذه الجامعة المؤتمرات العلمية التي تربطها بالجامعات العلمية ، ثم تولى الأستاذ : نبيل لين " فرحب بالضيوف والباحثين للدعـــوة وذكر الجهود المبذولة من اللجنة المنظمة لنجاح المؤتمر، والتي على استجابة الباحثين للدعوة، وذكر أنهم من (ماليزيا- وأندونيسيا- ومن ليبيا-و من تركيا-ويروتاني- وايران) ، وأعطـــاني بعد تمنياتي بنجاح المؤتمر وأعماله الكلمة لأعـــرّف ببلادي ليبيا ومدنها وحياتها السياسية والاجتماعية ، وجمعية الدعوة الإسلامية وكلياتها وجهودها باعتباري رئيس قسم اللغة العربية فيها فقمت بالمطلوب.

وصف شارع الأديان : هذا الشارع كبير وفسيح وقد جاءته هذه التسمية ؛ لأنه يضم على طوله المشتمل على حديقة كبيرة الفناء حافة بالغرس ، والأزهار، والأشجار ويضم الجامع الإسلامي ، والكنيسة المسيحية ، والكنائس اليهودية ، والمعبد الكونغوشيوشي غير ذلك من المعابد.

وصف الجامع الكبير: ولقد زرنا فيه الجامع الكبير فأدينا فيه صلاتي الظهر والعصر واستقبلنا في إحدى قاعاته الفسيحة وهو منظم تنظيماً جميلاً وتعارفنا على بعض العاملين فيه وعن المســـؤول عنه وباعتباره عالماً ، ومفكراً يرعى مصالح الجامع، ومصالح المسلمين وهو الأستاذ صلاح ، كما تعرفنا على شقيقه الإمام الراتب الشيخ الذى قدم نفسه إلينا معتزاً أنه خريج مدينة البيضاء ليبيا في السبعينيات ، وقد أظهر الكثير من علامات السعادة وهو يتحدث عن ذكرياته الطيبة التي أمضاها في أرض وطني ليبيا، وكأنه رأي ليبيا في شخصي ، وذكر بلطفه ما لقيه من كرم الضيافة ، وقال : وعلى وجهه البشاشة إنني مدين لهذه البلاد بالكثير من الفضل ، فذكرته أن الأمة الإسلامية أمة

واحدة ، وقد إلتقينا في هذا الجامع المبارك المؤسس منذ مجيئ المسلمين الصينين إلى " تايبي بعدد آخر من خريجي ليبيا العزيزة وفيهم شخصيات محترفة في وزارة الخارجية بتايوان، ورجال تجارة وأعمال ، والذين لم يخفوا - أيضاً - ، ومما علمناه في هذه الجلسة الدينية الـــودية التي اجتمعنا فيها مع المذكورين من فضلاء المسلمين الباحثون من إندونيسيا ، وماليزيا، واليونان، وتركيا أن الإسلام وصل إلى هذه الجزيرة في العصر الحديث عندما هاجر إليها عشـــرون ألف من الصين الشيوعية أنذاك في سنة 1949م " إبان سيطرة الحزب الشيوعي على الصين، وإن عدد المسلمين يقدر في الحاضر بخمسين ألف نسمة ، وهم جميعاً ؛ بل جلهم في وضع جيد مستقرين بسبب ما يتمتعون به من الحرية الدينية السائدة في البلاد.

أطـــــول مبنى في العالم: زرنا بعد ذلك اللقاء الحميمي مع الإخوة الباحثين المسلمين المبني العالمي الرائع الضخم الذي يسمي المبني مائة وواحد (11) الواقع في أكثر شوارع مدينة (تايبي) وهو يقع في جـــوار مركز التجارة العالمي الكبير، ويعتبر هذا المبنى إلى تاريخ زيارتنا اليوم أطول مبنى ؛ بل أضخم مبنى في العالم أجمع ، لأنه يضم مئة وواحد من الطوابق، إنه أعجوبة من عجائب هذا الزمان وله أربع طوابق تحت الأرض، فيها من المقاهي والمطاعم والمتاجر ما ينقضي منه العجب، وجميع هذه الطوابق حافلة بالأف البشر من الوطنيين والسياح على أحدث طراز عمراني وتكنولوجي وفيه مكتبة تباع فيها الكتب وأنواع القرطاسية، وهي تضم كتب اللغة العربية الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها فضلا عن الصينية ، وقد بحثتنا كثيراً أنا والدكتورIPSIRLI عن كتب اللغة العربية واللغة التركية ، فلم نعثر على شيء في ذلك المبني يهولك باتساعه على مستوى العرض كما يهولك بطوله الشامخ الذي عد به أطول بناء في العالم، كما يهولك من الداخل بكثرة متاجره ومحلاته التجارية والتسويقية المفتوحة والمنمقة على احدث الأساليب العصرية لها مصاعدها الخاصة ، ويتميز هذا المبني الرائع بمصعده الكهربائي الســـياحي الرائع الذي يلبي حاجة الزائرين في الوصـــول إلى قمته العالية الذي يطوي المسافة في ثـــوان تقل عن الدقيقة الواحدة في سرعته تشبه سرعة الصاروخ لا تحس خلالها باهتزاز أو فقدان توازن ؛ بل يمضي في لين وقد رأيت من إقبال الزوار على استعماله للوصول إلى أعلى المبنى ما ينقضي من العجب سواء من الصينين أو من السياح الأجانب ، وقد فرغ من تشييد هذا المبني حسب ما سمعنا سنة(2003).

الدراسة الفنيـــــــــــة : اللغة ، التراكيب ، البناء الفني.

أولا ـ اللغـــــــــــة : تتبع هـــذه الرحلة وتحليلها

من خـــلال ما كتبه الرحالة محمد مســـعود جبران تلاحظ أن ســـعه الثراء الثقافي ومستوى التمكن العلمي ودرجة النضـــج الفني لديه ظاهرة ، وهو ما تكوّن عنده حاسة علمية وصور فنية مكنته من التأنـــق في عباراته والإبقاء باسلوبه ، وامتاز جبران دون كثير من أصحاب الرحلات بإعطاء القارئ لمحة وجيزة إلى منهجه قبل البدء في سرد الرحلة وقد اعتاد خلال أسفاره أنه لا يدخل مدينة أو بلد إلا وحرص على معرفة أهل العلم فيها ، ومقابلتهم ، فإن وجد من يســـتحق الجلوس إليه والسماع منه ، ومحاورته ســـرّ ذلك وفعل وبذلك جمعت رحلة (جبران) في توازن واضح بين ســـرد الأحـداث ووصف المشاهد والتعرف على الأشخاص وعرض المرويات والمعلومات ، فالرحّالة وُفّـــق إلى مراعاة ذوق جمهور القراء فأتي بمشاهداته عامة متنوعه ، تشمل كل ما يمكن أن يقال عن المزور من سائر نواحيه الجغرافية والتاريخية والاقتصادية بحيث يجعل القارئ رفيق ملازماً له في سفره وصاحباً في تنقلاته ، منصتاً لحديثه، ومشاركاً في مشاهداته ، وبالإجمال فإن لغة الرجل جاءت رصينة وافيه بالغرض فقد استعمل المحسنات البديعية من جناس ، وسجع، وطباق كقوله: (طريق طويل على أرض بعضها ساكن لمن يريد التمهل وبعضها الآخر متحرك لمن يريد التعجل) ، وقوله : (في مساحة خضراء واسعه الفضاء) ؛ ولكن كانت رحلته لا تخلو من الكلمات العامية في قولة (دكاكين – دلفناء) ، وكان اسلوبه بعيداً على الاستفهام.

ثانيا ـ التراكـــيب : في رحلة جبران التي لا يجد القارئ فيها أية صعوبة تذكر من حيث ألفاظها ومضامينها وسهولة الألفاظ والمعاني وكان أبرز هذه التراكيب المتمثلة في التراكيب التقنية ومنها النعوت والصفات التي لا يخلو منها أي وصف ، فالكاتب كان حريصاً على إعطاء الأشياء والموجودات نعوتها وصفاتها من ذلك قوله " ولعل في أبرزها التمكّن من رؤية هذا البلد البعيد القصي المنسوب في القديم إلى الصين الكبرى والعظمي " و" قد كانت هذه المناسبة أول مناسبة أركب فيها متن هذه الخطوط المتميزة بخدماتها العالية في الطعام والشراب والمعاملة الحسنة ، ووجود الإثاث وفسحت الكراسي واتساعها"، وكما هو واضح من النص السابق تعدد النعوت في الموصوف الواحد ، وهذا يدل على مقدرة كبيرة يتمتع بها الكاتب في صياغة تراكيب تقنية عديدة لموصوف واحد كقوله : " ومما لفتني - أيضاً - في الطائرة تلك الزمرة الطيبة من الشباب المسلم الذين حرصوا على أداء الصلوات فيها ، ومحوت الرأي

الخاطئ السائد فيها " ، كذلك جاءت بعض التراكيب التمييزية في رحلة جبران، وهي اسم نكرة بمعنى : (مـــن) وغرضه رفع إبهام شيء عدداً كان أم مقدراً أم ما يشبه المقدار، أو يرفع إبهام نسبة الفعل للفاعل والمفعول ، ومنها قوله : " أما عدد السكان فيبلغ اثنين وعشرين مليوناً أو يزيد " ، ومما يجعل الاندهاش يجول مختالاً في أعماقك والتساؤل في طواياك" و "وهي أكبر مدن هذه البلاد مساحة ، ويتجاوز سكاناها ثلاثة ملايين نســـمة ، وهى معدودة مركـــزاً صناعياً وتجاريا (11)"، وكذلك جاءت هذه التراكيب المعللة للأسماء ومنها الحروف " إن" إذا دخلت على مضمون الجملة أفادت التعليل عند بعض النحاة ، وهى تفيد التوكيد وأكثر جبران من استعمالها مع اسمها الذي غالباً ما يكون ضميراً متصلاً كقوله : " ومحوت الرأي الخاطئ السائد أن شباب دول الخليج شباب مستهتر" ، و قال :" إن مطارات الدول العربيـــة لا تساوي في أحجامها حجمه " ، و " فيه مطعم كبير جيد يغشاه من يحل فيه إلا أنه يحتاج من المسلم ضرورة الانتباه والتحري " ، و" وقد فجئت بأن الصينين يفضلون شرابه بدون سكر" ، و"أنه خريج مدينة البيضاء ليبيا في السبعينات" ، و"فذكرت أن الأمة الإسلامية أمة واحدة ومنها "لعل " وهي من الحروف التي تفيد التعليل ، ولم تأتِ في هذه الرحلة إلا مرتين نحو قول الكاتب : " لعل أبرزها التمكن من رؤية هذا البلد القصير المنسوب في القديم إلى الصين الكبرى" ، وجاء في الرحلة تراكيب مؤكدة منها " قد "" و اللام ، وقد تكون حرفية واسمية وتدخل على الفعل الماضي فتفيد التحقيق والتوكيد ، وتدخل على الفعل المضارع فتفيد التوقع والتكثير ، ومما جاء في الرحلة قول الكاتب " قد يتـــوه فيها الإنسان "، و" وقد استقرت الرحلة ساعه ونصف كاملة" ، وكذلك اللام بأنواعها لها معان كثيرة منها ما يفيد التأكيد ولا سيما إذا كانت للابتداء ، ومنه قول الكاتب " وله أماكن ومجالس يتردد الناس للاستماع بنكهته وروعته" و" على أرض بعضها ساكن لمن يريد التمهل وبعضها متحرك لمن يريد التعجل".

ثالثاً ــ البناء الفنـــــي :

1-**اسلوب الســـــرد الحكائـــي والوصفي** : لقد وضع مقدمة شـــرح فيها الأسباب التي دفعت به إلى الرحلة نحو الصين حيث يذكر أنه تلبية لدعوة كريمة من جامعة جين جي بي في تيابي ، ثم بدأ في سرد أحداث رحلته ابتداءً من وصف الطائرة مروراً بالمطار، ووصولاً إلى شارع الأدياب ، والجامع الكبير ، وحسب ما يقول الغرض منها كان عرضا علميا وتطلعيا ، وقام من خلال هذه الرحلة بوصف دقيق وباسلوب غايةً في الوضوح ، وصوّر لنا فيه المدن التي زارها ، وقد امتاز اسلوب الرحالة خلال ذلك

العرض بحيوية ملموسة بين نوعين من السرد فمنهم المسترسل المتحرر من الصنعة البديعية المتكلفة ، وهو ما يكون في الوصف المحايد للإمكان والأشياء، وسائر المعلومات والحقائق العلمية ، جغرافيا كانت ، أو أدبية ، أو فقهية، أو لغوية ومنه السرد التي تحكمه الصناعة والتأنق البياني والتوشية بمختلف الأصباغ البديعية اللفظية والمعنوية التي عرفتها اساليب الكتابة قديماً وحديثاً(12)

2- **التناص :** نظرية موجـــــودة في الآراء المتعارف عليها عند النقاد والأدباء من مختلف الثقافات ومنها الثقافة العربية ، فالقارئ يجد الكتّاب يؤكدون على دور الحفظ والرواية والتمرين بأساليب أدبية ، وإذا أخدنا مقاله محمد بالحاج عن التناص الذي يعرفه بأنه : " استدعاء لما اختمر في ذاكرة الأديب من قراءات ومحفوظات تراثية ، وربما معاصرة - أيضاً - وجعله ضمن نسيج النص أو فسيفسا المنتج المبدع ، وهو بذلك يتجاوز معاني التضمين والاقتباس والسرقة الأدبية فقد يأتي تعبيراً عن مشهد ما أو موقفاً قد يلامس في معناه تعبير آخـــر قد ورد في موضوع آخر، وقد يستعين الكاتب بنص حرفي للتعبير عما يدور في خلده ، ومن هنا يمكن أن نقسم التناص إلى مباشر وغير مباشر ، ومن الأمثلة على ذلك قول جبران : " وسعدت بالتأنس به " ، وهـــذا من قوله - تعالى-: **(قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّيَ ءَانَسْتُ نَاراً)**(13)

الخاتمـــة:

لقد شـــكلت هذه الرحلات أهم مصادر التاريخ الليبي لما احتوت عليه من أهمية خلال تلك الفترة ، ومن ثم شكلت دراسة دقيقة لمختلف الجوانب السياســـــية أو الاقتصادية متضمنة بالتحليل والنقد أحياناً وبالوصف و المقارنة أحياناً أخرى الأمر الذي جعل هذه المدونات مصادر قيمة ينبغي استغلالها في مختلف الدراسات ، وقد كانت الرحلات المغربية منها رحلة العياشي أساساً لتسلسل الوقائع والتحولات التي طرأت كما برزت رحلة ابن مليح في إطار متميز باعتبارها جاءت لاستكمال مجريات الأحداث في منطقة الجنوب الليبي ، حيث تناولت الأوضاع السياسية فيه ، وخاصة منطقة فزان التي مـــر بها ابن مليح ، وكذلك اهتم الرحالة المغاربة من خلال كتاباتهم بالأوضاع الاقتصادية حيث أصبحت المعلومات التي أوردتها المصادر المهمة للمجال الاقتصادي في البلاد الليبية ، وذلك لتناولها الحديث عن الثروات الموجودة في البلاد ومناطق وجودها.

النتائـــــــــج:

1- الرحلة فـــن من فنـــون النثر قائم بنفسه ، منفرد عن غيره، مميز بصفاته عن الأجناس الأدبية المعروفة ، وله مقوماته الفنية، والمنهجية الخاصة ، التي تختلف من رحلة إلى أخرى لأنه يخضع لميول الرحالة ومتأثر باهتماماتهم.

2- الرحلة مكنت هـــذا الأدب من التفرد في جنس جديد من الأجناس الأدبية ينافس الفنون الأدبية ، وأضحت له مؤلفاته الخاصة.

3- أسهمت الرحلة في بناء علاقات بين ليبيا وبعض الدول التي عبر بها الرحالة.

4-أنتجت لنا الرحلة من خلال كتابات الرحالة من اللغة والتراكيب والبناء الفني ما يدرسه الباحث ويقوم بتحليله.

التوصـــــيات:

1- رسالة ملحة إلى الباحثين والدراسين للإقبال على دراسة هذا الأدب ؛ لأن كثيراً من جوانبه مازالت دفينة ، تنتظر من يركب الصعاب ليزيح عليها غبار السنين.

2- ربط شبابنا بتاريخ بلاده المجيد في فن الرحلة .

3- أنوه بتدريس هذه المادة في مناهج بلادنا ليبيا.

4- إبراز الكتاب الليبيين في هذا الفن.

الهوامـــــــــش:

1- الرحلة والرحالة المسلمون أحمد رمضان، دار البيان العربي، للطباعة والنشر، ص7، بدون تاريخ.
2 - الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي والاجتماعي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، على مفتاح إبراهيم منصور.
3- سورة الحج الأية27-28
4 -الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي والاجتماعي
5- ليبيا في الرحلات العربية والغربية(نحو رؤية تحليلية مقارنة)دار النشـــر مجمع اللغة العربية-دار الكتب بنغازي ص665- 2009م.
6- تاريخ الأدب الجغرافي العربي ص17–كراتشو فسكى
7 -كتاب الرحلات- شوقي ضيف-دار المعارف مصر ص6-1956م
8 -ادب الرحلات - حسين محمد فهيم –عالم المعرفة138 ص9-الكويت 1989م
-9ادب الرحلة- حسني محمد حسين- ط2- دار الأندلس بيروت
10-إرتسامات الإسفار- محمد مسعود جبران- لم يحقق بعد.
11-المبادى الإعلام- ميشال زكريا المؤسسة الجمعية لدراسات -النشر والتوزيع بيروت ط2-1983م.
12-علم المعاني-العربي سالم الشريف –الرواية2003م